سماءٌ أخرى

شيرين العدوى

سماء أخرى

شيرين العدوى

سماء أخرى

إهداء

إلى من أحب!

آخر ما كتب الحزن

وتقول لى:

والليل صفصاف على حزنى

إنى اصطفيتك للجزيرة

فخذى إليك شذا تبقى

من صوت فيروز الشجى

"لا تعتب على"

وتقول لى:

كانت جزيرتنا مسار النور

مذ صور الله المسيح كآية

يحيى بها الموتى ويبعثهم

وتقول لى: قول البنفسج

خلفت هذا الحزن فى دمى المقدس

فخذى إليك ببهجتى

وتسربلى بى

أنت فى القلب الفرح

وأقول لك:

خذ ما رنا من باقة النسرين

إنى غزال سارح للحلم

يقطف كل يوم وردة نجلاء

يحملها السنا بطقوسها

للحاملين نذورهم عبر الحياة

وللفضيلة والرذيلة من تسابيح البشر

وتقول لى:

ما ضر شالك لو تحرك نحو صدرى

ضمنى أو ضم قلبى

وأقول لك:

أخشى لصوص الليل من أن يسرقوا وطنى

سميتك الوطن المقدس

ووقفت جنديا ينافح عنك

فى وجه اللصوص

فجعلت تفاحى لنا

قمرا لتحرسه السماء

وجعلته شمسا ليحرسه النهار

وتقول لى:

يا أنت

موال الرباب

سورة التكوين

«آية قد سمع»

بل شهد من عرف القداسة والرضا

فأقول لك:

يا قلبك المشغول بالنوّار

عند مغارة الصوفى

أو فى المعبد البوذى

أجراس الكنائس

للتلمود

مئذنة وحارس

كأس بأيدى العامرى هى

كلما اختبأت تجاهر

وتقول لى:

يا أنت لى الفرح الذى

انتظرته فينوس الجميلة وحدها

خمسين دهرا

كانت تقض هناك ميراث الجمال

حتى أعود

وكلما غزلت صباحا

تأوى إلى سردابها ليلا

لتفك ما حاك الجمال بشعرها

وتقول للشمس اختفى أرجوك أن تتدللى...لا تقبلى

حتى ينام العاشقون على جزيرتنا البعيدة

وتقول لى:

أنت السماء

ميراث أمى من بلاد النيل

أنت دمى

ودمى إذا أصبحته

أضحى إله العشق فى زمن الضباب

وتقول لى:

قول المؤرخ للمغازى فى كتاب الفاتحين

أنا أول الناجين

أنا آخر الناجين

فلتفتحى جزرى

ولتزرعى للقائمين

منارة التوحيد

ثم تبددى

بلورة الرحلة

وخرجتُ من هذا المدْ

فرسي سهام الصبر من عين البلدْ

خطوي رهان اللازورد على الولدْ

دمه النجومُ اللامعات على فساتين البناتِ

هتافُ صرختِه خَضار المتعبين للقمة العيش الكفافْ

دمه خمور الطيبين

الجالسين على حصير مصاطبِ

الشاي المؤجل بانتشاءات المساءْ

فلتفرحي يا أم... طيري... زغردي

ولتصعدي منه اصعدي

تصفو العبارة حين يسأل شهقتي

ملك عن الدنيا

وعن مبعوثة قالت بذات قيامة:

يا قوم قد حُمِّلتُ منطق ذلك الوطن البعيدْ

طوبى لمن حمل المسافة بين أكتاف الحقيقة والخيالْ

طوبى لمن حمل المثال

******

عند الصعودْ

نامت على قلبي عصافير الكلام

ونقرت صمتي كما النور المباغت في لياليا

سيمنح ضعفنا بعضَ السلامِ

وبعض أنغام النشيدْ

للشوق دفءُ حدائق النعناعِ

أرديةُ الحنوطِ

بكارةُ الطفل الوليدْ

يا نبضيَ المُجترَّ آمالي تأملْني

أنا زيت القناديل المصاحبُ دمعةً تجرى

ثلاثين انجرافا في لظى الكمه المعادِ

أعود سكرَى

أرتمى فى البرزخ المعمود للجسد الصبي

أتسربل الفقراء والجوعى

وأطفالا مهددةً

بنزع التوت من نيل القلوبِ

ونزع نيل القلب من توت القصيدْ

هل ترسلون إليهم الأقمارِ

تُهدى ضَعفهم قُبلا من الرمانْ

أحلاما من الريحان

تصنع يومهم خبزا شهىٌ

يا أيها الملأ القعودْ

هل ترسلون

قمرا هناك على سرير الأرصفةْ

هل ترسلونْ

لا تسمعوا الصوتَ الصدىٌ

هل ترسلونْ

علما يرفرف في دمى

هل ترسلونْ

لا تلبسي الأمل البليْ

هل ترسلونْ

نهرا نبيا ضارعا

هل ترسلونْ

لا تبدئي الوجع الخفيْ

هل ترسلونْ

النهر مدد قيحه في كل رابية وحيْ

لا تطلبي الشيء العصيْ

لم أطلب الشيء العصيَّ

فقط ظننتكمو ذويْ

يا أيها الزعم العنيدْ

يا أيها الجمع البليدْ

يا صوت ثواري تعالَ

لنبدأ الترتيل بالصوت الندىْ

يا صوت أطفالي تعالَ

تعالَ ملتجِأً إليّْ

واضحك مليا

واصطخب في مسمعيّْ

يا أيها الملك الموكل بالحياة ارفق بنا

أرجوكَ حرر وردتي من هذه الدنيا

لآتى واحدًا فردا هناكْ

لا شيء يذكرني هنا

أبكى إذا شاهدتُ أطفال الشوارعِ

فوق أرصفة المرورِ

شريدُهم يُؤوى الشريدْ

الفل في يدهم علا

والرأس ذلَّ مع الحذرْ

والذات في الذات الكسيحة تنكسرْ

يا أيّها الملكُ الموكّلُ

إنني أتلو تعاويذ النجاةْ

أتلو تعاويذ المياهْ

****

«افْتحْ سمائي أيها المحبوب حابى

افتح لى الأبواب هيا

من نسج أحلام التعاويذ العتيقةِ

قد أتيت افتح إليا

ولتعطنى خبزا وكعكا

أعطني لحما طريا

هيا أنوبيسُ افتحي

للروح باباً فَتِّحي

يا أيها الجمَّيز أرسلْ لي الهواءْ

والماءَ أرسلْه إلىَّ»

******

يا أهلي الشهداء

تائهة أنا

أتنفس الصحراء من قلبي

على الأيام مغتربًا رضِيّ

وأردد الأنات أغنيةً على وقع الخطرْ

*****

«نُحْ معى يا مطرْ

طال هذا السفرْ

عابرٌ ما عبرْ

دمع وجدي عبرْ

ما لماء المآلْ

هدَّ جِدَّ الرجالْ

نُح معى يا مطرْ

نُح معى يا مطرْ»

*****

الماء زادٌ للسفرْ

الماء دوَّار القمرْ

الماء جذوة عاشقينِ

فسر بنا سرْ يا الجمالُ المختبئْ

من فوق أنات الظمأْ
يا حاديا ساق المياه

تراك تحدونا إلى عطش النبأْ

من عشبة الترتيل محفور أبو ذرٍّ علىَّ

لعلني أتشبث الضعف القوىَّ

وأنكر الدنيا متاعا

أذكر الأخرى حفيًّا

الآن أحلم ها همو الأحباب جاءوا أجمعين

ها أنا بين الجموعِ

كنسمة وسط الرياح تُجابه الأفق العنيدْ

بمساحة بيضاء تذكرني هنا

بمساحة بيضاء تذكرني هناك

في حضرة الحب المقدس
تَخرج الروحُ الحَرونُ كأنها قُبلةْ
فلها هنالك من نبيذ العرس قافيةٌ
بياض دائم السُّبُحات والأنَّات رقَّ
وحالمٌ لَكَما السماء
ودافئٌ لكما الحمام الحرِّ يصفو كالوعودْ
يا كوَّةَ الصبرِ المدجَّجِ
في المقالة والمُقامِ
لتبدئي بلورة الرحلةْ
فالآن أبتكر الوجودَ
الآن أبتكر الوجودْ

صباح

هل ثمَّ ضوءٌ للصباح؟
دقتْ يدي بابًا ألا أحدٌ يردْ !
ردَّ الصدى
أحدٌ أحدْ
هذا الفراغُ نسيجُ قابلتي
قِمَاطٌ من ظلامٍ لفَّ خاصِرَتِي على مَهَلٍ
كأنَّ الكونَ أشْبَاحٌ تُطاردُنِي
جبالٌ جمجماتٌ فاغراتُ الوجه
والعينانِ أنهارُ الدماءْ
هل ثمَّ وَجهٌ للصباح
رسمتْ يدي قنديلَ قمحٍ
وجْهَ فلاحٍ كأنَّ الشمسَ
تَنْقُشُ فوق مَلْمَحِه رِضَا أيَّامه
وخطوطَ فأسٍ نِصْفَ عاريةٍ من الفقرِ المُقيمْ
عكستْ مياهُ الظُلم رسمَ يدي

فلا وجهٌ هنا؟

ردَّ الصدى

وجهٌ فراغٌ من سوادٍ

عصْف غربانٍ وأنيابٍ حِدادْ

هل ثمَّ قلبٌ للصباح؟

دقتْ كمنجاتُ الغيومِ

وأمطرتْ وجعَ الثرى

لغةً مهلهلةً

فلا خفَّ الكلامُ

كوجه عصفور يُبللُ ريشَه حباتُ ماءْ

لا ولا سقطتْ كما الثلج الخفيفِ على الجبالْ

ردَّ الصدى

لغةٌ مهلهلةٌ

كثوب الكادحين للقمة العيش الكفافْ

لغةٌ فراغٌ

ثيِّباتٌ فى مَعَانِيهَا

وأرهقها المجاز

هل ثمَّ عقلٌ للصباح؟

حتى ولو عقلٌ هيوليويٌ

كأسماكٍ على سطح المياه

ما إن نحاوطها بشص تختفي فى عُمْق قاع

ردَّ الصدى

عقلٌ فراغٌ من سوادٍ

أصبح الكونَ الفراغ

وفرغ التغيير من عقل الزمن

أكلتْ سنابلَه سنابلُ يابسهْ

هل ثمَّ بنتٌ للصباح؟

قدسيةُ الفرح الطفولي

ببذرةِ التوحيدِ فى أرضِ الفناءْ

ملاحةٌ فى طينِ تُربتها

لتَبْذرَ فى الطبيعة

ضوءَها وعِياَلها

ردَّ الصدى

بنتٌ فراغٌ أجدبتْ

لم تَحْملِ النُّورَ المَسَرةَ

لمْ يَهبْهَا صورةَ الكونِ الإلَه

هلْ ثمَّ طفلٌ للصباح؟

مدَّ الذِراعَ مِنَ الغَلَسْ

فتفتَّحَ الفجرُ الشريدُ كزهرةٍ

فى بُرْعمٍ تَنْضُو على غُصْنٍ وَهِنْ

وتُحوِّلُ اللَّيْلَ الطَويلَ

لزفرةٍ منْ نَسْمَةٍ رَقْرَاقةً

وعلى سريرِ الكَونِ

تبدأُ هالةُ التَسْبِيح فى سِرِّ اللَّيالي

تَسْتَرقُّ الصَّمتَ حِينَ تَئِنُ أوراقُ الشَّجْر

فى لَحْظَةٍ مَمْرُورَةِ الإيقاعِ يجْلِدُها المَطَرْ
من شرفةٍ للقلبِ يسقطُ طِفْلُنا
من ذِروةِ النَّجمِ البَعيدِ
لَعلَّ جَفنًا ناعسًا يَصْطَادُه
حلمٌ يراعٌ تائهٌ ضلَّ الطريقَ إلى الرؤى
هل سَوفَ ينزلُ طِفلنُا لِشوارعِ الحُلْم الطويل
يُمَارسُ اللَّعبَ الجميلَ
بصحبة الأطفالِ فى رحمِ الجوار
يتحولون سحابةً فى القلبِ تسري غضةً
تلدُ الزمان
ردَّ الصدى
طفلٌ وحيدٌ يكملُ الترتيلَ
من صوتِ السماء
طفلٌ كبرْقٍ يبتسمْ
طفلٌ ينامُ الآنَ فى إنْسَان عيْني

فى عيونِ الروحِ فى ألمِ الجسدْ
دقتْ يدي بابًا ألا أحدٌ يردْ
أَوَ سوف يولدُ فى فراشِ الكونِ حقًا ما يموتُ الآنَ
فى هذا الصباح؟

يا بنات الكرخ(١)

1. الكرخ: سوق بناها الخليفة أبو الجعفر المنصور خارج بغداد ليسكنها العامة

من قِبْلَةِ التَّطْوَافِ
حولَ سفائن الحلمِ المُعاندْ
أعلو لدىَّ ــ ومِلءُ رُوحِى ــ
كبرياءُ قَطِيفتى
فإذا تخلَّصتِ البحارُ من البسيطة
والبسيطةُ من ثيابِ البحر
ذاكرةٌ تعودْ
هذا نهارٌ لا يضاهى نُورهُ شفقَ النهايةِ
من خروجِ الرُّوح من وخز الحمأْ
لكِ أنْ تَعودِى مرةً أُخْرَى
حمامًا كَبَّلتْهُ سوءةُ الطينِ الجَسدْ
لكِ أنْ تُعِيدى الذَّاكرةْ
لى مرةً أُخْرَى أُعِيدُ الذَّاكِرةْ
هِىَ دَهْشةٌ أُولَى
ولِكل بَدْءٍ دَهْشَةٌ

فلتبْدَؤوها بالتَّحية

(السلامُ عليكِ يومِ وُلدتِ)

تتأطَّرُ(١) الرُّوحُ

انتصرْ لى

يا أيُّها الطينُ الجَسَدْ

أعطنى جذرًا قويًا

أعطنى جذرًا قويًا وجناحيْن و أفقًا قد تهيَّا

وخلالَ الروُّحِ

جُسْ طَيفًا خَفيًّا

يتملانى مَليًّا

أتملاهُ مَليًّا

إنَّنى ما عُدتُ أَرْضَى

أن أُجيزَ اليومَ ــ يا نفْسِى ــ

على نَفْسِى سِواىْ

١. تتأطر: تتثنى

صفحًا أَمُرُّ على السحابِ

(لله الأمرْ من قبلُ ومن بعدْ)

للشَّمسِ قافلةُ الضياء

من غير صوتٍ أو حُداءْ

غيْمٌ(١) يُحاصِرُنى

يا أيُّها الطينُ انتصرْ لى

أعطنى جذرًا قويًا

أعطنى جذرًا قويًا وجناحيْن

وأفقًا قدْ تهيَّا

وخلالَ الروحِ

جُسْ طيفًا خفيًا

يتملانى مليًّا

أتملاهُ مليًّا

إننى ما عدتُ أرضَى

١. عيم: العيمة شهوة اللبن أى شدة العطش إلى اللبن فى الصحراء

أنْ أُجيزَ اليومَ ــ يا نفسى ــ على نفسى سوایْ
مرةً أخرى يُجلِّيك الشَفقْ
واتَّخذْتُ البحرَ للقلبِ سَبيلا سربا
فتناءىْ عن لَظَي الحيِّ المُبِنِّ
لا خَوْفَ ــ بعدَ اليومَ ــ مِنْ خَوفٍ عليْكِ ولا حَزَنْ
شِيفِتْ وُجوهٌ منْ بَريق مَحبتى
و وجَرْتُ منْ لَهْفِى عليهمْ
لا خَوفَ ــ بعدَ اليومِ ــ من خوفٍ عليكِ ولاحَزَن
ولتُصْنَعى أنثى على عِينى
عيناكِ ــ والسَّبعِ الطباقِ ــ حمامتانِ
خدَّاكِ رُمانٌ تفتَّقَ أو جُمَانُ
تفاحُ روضٍ يانعٌ تحتَ النقابِ
لا تُوقِظُوها الآنَ
ولتتركُوها فى معاقلِ سِترها

حتى يُفِيحَ نَدى النهارُ

ويهزمُ السِّمْطُ الظِلالَ

قومى حبيبتىَ الجميلةْ

هذا حَبيبُكِ

دَثِّريه بالزبيبِ

وأنعشيه بانهمارِ الحبِّ مُؤْتَلِقًا

وأصواتِ الَيمام

فى اللَّيل نادى قلبه

يا راعىَ السوسن

أنا يا حبيبى

قُمقمٌ مختومْ

عينٌ مغلقةٌ

ويَنبوعٌ من السِّحْرِ الْمُطَلْسَمْ

جُبتُ الشَّوارعَ

لم أجدكْ

جُبتُ المَدائنَ

لم أجدكَ

فيا بناتِ الكرْخ

أينَ مَضى حبيبى

لم نَلْقَهُ

لم ألقَهُ

ووجدتُ حُرَّاسَ الطوائفِ فى المُدنْ

تِلكَ الثَّعالبُ أفسدتْ بِكْرَ الكُرُومِ

فلتَأْخُذُوا تِلكَ الثَّعَالِبُ

سِتُّونَ جبارًا

تَغذَوْا بالحروبِ

وقابضونَ على السِّيوفِ

فيا بناتِ الكرْخ

إن غدًا سيأتينى حبيبى

فوقَ تَخْتٍ مُشْرِعٍ من نخْلِ سامرَّا

روافِدهُ ذَهَبْ

وعِمَادُهُ مِنْ فِضَّةٍ ومَقَاعِدهْ

من أُرجُوانى اللَّهبْ

مجراهُ دِجلةُ والفُراتُ

مَرساهُ بغدادُ الجميلةُ يا بناتُ

وغدًا غدًا يأتى حبيبى

بعدَ التفرقِ و الشَتاتِ

فيا بنات الكرخ هل مَرَّ الحبيبْ؟!

من الحبيبْ؟!

رُدِّى عَلينا يا الجميلة؟!

جِيكورُ وَجهٌ للمُحيا

والقلبُ صَبَّارٌ رضىٌ

جاءَ أبوابى و دَقَّ

فَهئْتُ أفْتَحُ لى صَفيًّا

أَدْبَرَ الفردوسُ دُونِى

فاترُكُونِى.. تَخرجُ الأحشاءُ منى
حينَ أدبرَ جاءَ حُرَّاسُ الطوائفُ
جَرَّحُونِى قتَّلُونى
أفْسَدُوا كرمى... ثيابى
يا بناتى
إن رَأيتُنَّ الحبيبَ فقلنَ له
إنِّى مرضتُ العمرَ حُبًّا
إنِّى أناديكِ انتظرنى يا الحبيب
قبلَ العُروجِ إلى مداراتِ التوحدْ
اركنْ لنفسكِ ساعةً
إنى أراهُم جهزُوا خَشَبَ الصليبْ
فاركنْ لنفسكَ ساعةً
إنى أراهمْ قد أعدُّوا المائدةْ
لا تبتئسْ
واتركْ لهم فوقَ الموائدِ وردةً

فلعلهم قد وحدوا ضِدَّيْن فى موتِ الحياة
إن لم تكنْ أبدًا... تكنْ لِى
فبأى آلاءٍ تُكذب

يا بنات الكرخ (٢)

أرسلتُ من عَين الحقيقةِ دمعتين

فدمعةٌ هَدتْ الرَّفيقَ على ضِفافِ الرافِدَيْن

ودمعةٌ نزلتْ على قَلْبِ السَّماءِ

فأَنْبَتَتْ مُهَجَ الجُنودِ و وردَتَيْن

هُزِّي إليكِ بجذعِ نَخلكِ

قد أتَيْتُ لِطِيبِ مَوعِدنا

ذى سيرةٌ أُخرى وحمرةُ تَمْرتيْن

مُرِّى بقلبي واقرئي لِي الفاتحةْ

فالقلبُ عصفورٌ وأنتِ الأجنحةْ

والقلبُ مقتولٌ وأنتِ الأضْرحةْ

إمشى بِدائكِ ما مَشَى بكِ صابرةْ

ما كلُ مَفتُونٌ يُعاتِبُ فاتِنهْ

شُفِّعْتِ فِيَّ فكنْتِ أنتِ جَناحَ مطلبِيَ الأثيرْ

وكنتِ أنتِ الفَاتحةْ

لا تَغْضَبِي مِنِّي

إذا أطلقْتُ فى قَلبِي النَخِيلْ
ما زالَ قلبِي يَقْتَفي أثرَ الجَلِيلْ
الموتُ عَاشَرَنِي
وأَحْيَا فى دَمِي سِرَّ التُرابْ
فَكُلَّمَا سَقطتْ زُهُورِي
أنْجَبتْ حقلًا ومِدفعْ
وبقيةً للسَّيْفِ أبْقَى لم تُجَمَّعْ
أيلولُ تُبـتْ
تَبَّتْ يَدَايَ إذا حَلمتْ
فى جَنَّةٍ وَقَفَ النَّهارُ
وكنتُ سُدتْ
غَسَّلتُ أرجُلَكُمْ بِمَاءِ ضَرَاعَتِي
وعَلِمْتُ ضَعفكُمُ وقُلتْ:...
أطْعَمْتُكُمْ خُبزًا بِزيتْ
فانْسَلَّ خَائنكُمْ يَسِيرُ بِليْلِهِ

وانْهَدَّ بَيتْ

فى رَهْجَةٍ أُخْرَى أَعُودْ

لا تَسْألِي عَنِّي

وإنْ بَكَتِ الحُدُودْ

أَتَغَبَّرُ القَاراتِ كُنْتُ

وكُنتُ نَجْمَةْ

ما زِلْتُ أَرْعَى كُلَّ كَرْمَة

عُسْلَ الصِبَا ومَلاذَ مَنْبَتِنَا

وشهدَ الأسئلةْ

هل تَذكُرِينَ الشِّعْرَ فى عَيْنَيْكِ

واللُّغَةَ المُجاوَزَةَ الكلامْ

رُدِّي عَلَيَّ الصَّوْتَ

يَنْطلقُ الحَمامْ

أرأيْتِنِي وأنَا أُفَتِّشُ كُلَّ رُكنْ

سَاءَلْتُ نَفْسِيَ والأَيائلَ والحُقُولْ

لَانَ الشِّتَاءُ

وتَخَضَّبَتْ أَزْهَارُنَا

والقَضْبُ ضُمْ

ولمْ يَجِئْ أبدًا إليّ

من أَبْتَغِى حَتَّى أَضُمْ

قُومِي حَبيبتيَ الجميلةْ

ولتَكْسِرِي سِتْرَ المَعَاقِلْ

ها أَنْتَ يا غُفْرَ الأَيَائلِ والسَنَا

قُومِي لَنَا

ابْنِي لَنَا بَيْتًا

جوائزُ رُكْنِهِ

أَرْزٌ وسَروْ

ها أَنْتِ طَالعةٌ على عَيْنِ البَرِيَّةْ

بيضاءُ دَانيَةٌ نَدِيَّةْ

كَعَرُوسِ لُبْنانَ الشهيةْ

وأَتَيْتُ بَيْتَكِ كُلَ لَيْلَةْ

فَرِحًا بِقَامَتكِ الثَرِيَّةْ

وَجعًا أَتَيْتُكِ لَا أَرِيمْ

وتَمَطَّرَ الضَوْءُ المُحَجَبْ

ضَوْءٌ على ضَوِئِي تهيَّا

لِي يا الحَبِيبُ

أرْتَادُ وُدَّكْ

هُزِى اليَدَيْن

مرًا تَقَطَّرْ

وَقَفَ النَّهارْ

واللَيَّلُ حَطْ

يَا مُهجَتِي آتِيكِ فَرْدْ

صَدَّ الصُدُودْ

والسَيْفُ مُدْ

مُهْرَاقَةٌ فَوْقَ الطَرِيقِ

فَلَأَنْتِ أَجْمَلُ مَا رَأى القَلْبُ المُغَنَّى في السَّفَرْ

هَذِى خُطَايَا المُبْصِراتُ بِغَيْرِ حَدْ

أَبْنِي عَلى وَجْهِي سَمَائِي مَيْفَعِى

وأَعُدُّ خَمْرَ العَارِفِينَ المُبْصِرِينَ بِمَنْ بَصَرْ

شُفْتُ الرِّضَا

فَشَفَى أَنِينِي

شَفَّ وَجْدِي وارْتَقَى

لا تَغْضَبِي مِنِّي

إذَا نَزَعُوا ضُلُوعِي

كَسَّرُوا سَيْفِي ودَنِّي

أَخْرجُونِي مِنْ كُفُوفِي

قَتَلُوا سَمْعِي وعَيْنِي

لا تَغْضَبِي مِنِّي

إذَا عَبَرَ المُرِيدْ

صَعْبٌ طَرِيقُ العَارِفِينَ

لظيً وشَوكْ

لا لَنْ تَكُونُوا قَشَّةً فِي العَينْ

أو شَوْكَ الخَوَاصِرْ

هَذَا دَمِي

زَهْرًا سَأَتْرُكُهُ لَكُمْ

قَدْ كَانَ كُبِّلَ بِالجَسَدْ

هَذَا البَيَاضُ إلى الأَبَدْ

هَذا البَيَاضُ اليَومَ رُدْ

نشیدان

كنا نُرتب دمعنا

نقتات غيما

نبتنى بيتا جديدا من زجاج نفوسنا

ـ أرجوكَ أنْبِت فوق شعرى نجمتين

ـ أرجوكِ لا تتعجلي قمرى

دعى قلبى ليكبر عند نهرك

كى يصير الحب طفلا

يحفر التاريخ فوق حضارتين

ـ أرجوكَ خاصر نسمتى

وارقص معى هذا المساء

غجرية روحى لديك كصيف آب

ـ قومى إلى ناطورتى وارعىْ كرومى

رتلى بحرا على روحى لكى أحيا بزرقتها

مسائىَ شوك أحزان

إذا خليت لى وردى وحيدا

فاصنعي لى قهوة عربية من بن عينيك

احملى وطنا إليّ

ـ حاولتُ صنع حضارتى

لم أستطع محو التتار من النخيل

مجنونة روحى

وأيامى الحزينة

ساعة التشريق والتغريب

أحلام الخميلة

من لم يمت بالعشق مات بفقده

فابسط على أهدابكِ العصفور

كى يبنى على خديّ عش قصيدة

******

مدن تروح؟ مدن تجيء

روح تدور مع القمر

******

ـ خلى نخيلي شاهدًا حيران

في الماء التقيت بضده

فتوحدت كل البلاد على دمى

أرجوكِ لا تنسَى على أبواب طيبة

حفر أغنيتي الوحيدةْ

ـ أرجوك لا تحمل إلى وصيتكْ

تسعى لتقترب المسافة

رغم أنى لم أضيعكَ

التجأتُ إلى غدير مرَّ في مسك التذكر

داخل النيران

آيات وأحلاما تدوم

****

هى عادة العشاق عود وارتحال

******

ـ سِفراً أصير على الهواء

أسيان لا شيءٌ لدىّ ولا وطنْ

لا شيء يبقى كي تصير بدايتي أملا

وفردوسي قصيدة عاشق للعائدين

من النهايات الحزينةْ

لا شيء يبقى غير بسمة طفلة

حملت سؤالًا حائرًا عن كلِّ من حمل الحنان

ويرتدى ثوب الحداد

ـصفرا أصير على الهواء

لهفى...

ولا شيء سيُدخلنى إلى وطنى

فقط هذا الهواءْ

خمر المجذوب

تتردد

اخلع صوتَكَ

فالروحُ ستصرخُ

وستهدأ

فهو النورُ فلا تحملْ عبء القلب

اخلعْ قلبك

وتمدد فوق سماءٍ أخرى

عند الشجرةِ عند السدرةِ تحيا

وهو النور

نبضٌ من شمسٍ وغبارٌ من دفء

فاغرقْ فى الوجدْ

وامتثلْ الساعةَ لملاكٍ ضلَّ طريقَ الصبر

هو النورُ سحابٌ من سَجاد الوقت

انسحبَ قليلا من بين يدىّ

فلماذا ستدورُ هناك تعالَ

فالخمرُ الأحمر

منذورٌ للعنب الطالعِ عندَ سماءِ الورد

هو النورْ

والنور طريق ومتاهةْ

والنور نجاةْ

بل غرقٌ ونجاة

والنورْ

آهِ من النور

ينْفلتُ هناك

هو النور

رقصٌ وصلاةْ

موتٌ وحياةْ

إذ يتجلى يتجلى الصمت

فى صرخةِ كل الأشياءْ

فى شهقةِ قمرٍ يطلعُ

فى نبض قد قطَّر من فمِّ العصفور الماءْ

يا اللهُ على الماءْ

لو يتجلى تتجلى الأشياءْ

والأشياءُ إذا شاءَ تشاءْ

يا عنبى.. قلبُكَ كأسى

والنبضُ تعرَّى عندَ الوجد

وآهِ من الوجد إذا كَشَفَ عن الوجهْ

يا آلَ المكسور المجبورْ

يا عنبى فى صمت محارةْ

لا تتجلَّ... رويدُكَ فالصَّبْرُ مغارةُ صوفى

والوردُ يَضوع

لكن لا يكشف سِرَّهْ

سر الأسرار تخفى فى اطمئنان النورْ

إذ يدخل قدس الأقداس المبهمْ

يدخل فى هدأة هذا النور المطلقْ

ـ ياااااااا هذاااااااا

ـ ياااااااا هذاااااااا

لن يسمعك المجذوب

ولن يتوقفْ

إذ كيف سيقف الشلالُ عن السريانْ

أو تعكسُ دورتَها الأنداء

يااااا هذاااااا

يااااا هذاااااا

لن يسمعك المجذوبْ

فالمجذوبُ تأخرْ

قمع الحرير

ستظل تحمل ما تحملتَ

انخفضت أو ارتفعتَ

إلى جبال من معانٍ للكلامْ

إذ أين كان الطور ينتظر الضياءْ

من أي دود الأرض أخرجتَ الحريرَ

وكيف أسكنتَ الشرانقَ لحظةَ البعثِ

انكشفتَ تُكشِّف السُّكر الذي خط الجناح

فصار خطًا، جنبَ جرحٍ، جنبَ قتلٍ

ثم من قمع الحرير خرجتَ

تبدأ رحلة كبرى تصير معقدا كفراشة

سهلا كماء في فلكْ

ما أسكركْ !

في نخلة للحب كان لقاؤنا

في صفحة التاريخ «بيَّازٌ» قديم

يحمل الوعدِ الجديدَ ويخرج الآن انتبهْ
أعلنتَ ما أسررتَ من نور مهيضْ
وذرتكَ ريحٌ بعثرتكَ
كَذَرِّ حَبِّ طار من طحن الغلالِ
على جلابيب النساءِ
صرخن لكْ
ما أتمركْ
كنتَ الصغيرَ تمد كفًّا غضةً
وتُفلسفُ الوطنَ الكبيرَ بذيلِ أُمِّكَ مفعمًا
لتصير مفتولَ السواعدِ
عاريَ القدمين مكشوفَ البصيرةِ
هل أضاعتكَ الطريقُ أم الطريقةُ
أيُّ شيءٍ ضللكْ
طار الفؤاد أأطركْ؟

أوَ قد نَسيتَ حنانَ أمكَ

دفءَ ثدييها وأنت تغافل اللبنَ الحرونَ

بعضةٍ من سِنَّةٍ صغرى

على فكٍّ طريٍّ أعشبتْ

فتُشاغلُ الكونَ اللئيمَ

بغمزةٍ من طرفِ طرفكَ

ضاحكا عند انسكاب الخبز

أنهارًا من اللبن المصفَّى

هو مَن أدلكَ دللكْ

فأسرَّ سركَ بصَّرَكْ

أم هل تفيأتَ الظلالَ

وأنت تنتبذُ الغداةَ

من اهلِ هذى الأرضِ

ثم تهزُّ وجناتِ السحاب

لتُمطِرَ الإنسانَ هطلاً

وحملتَ موجاً إثر موج إثر موجْ

مِن صبا بَرَدَى رباطُ النِّيل في سبأ الأصيلِ

إلى فراتٍ من خُزامَى دجلةَ العاصي إلى الأردنّ

كم صُبَّ النبيذُ وأثقلكْ

ما أصبركْ !

ووقفتَ فوق الماءِ

مشدوهاً إلى معنى الترابْ

أخرجتَ نفسك مُرهِفا

ووقفتَ تسمع شدوها المنسابَ لما أوَّلكْ

مّن عللكْ

بالنور حتى قطَّركْ

إذ قلتَ لك:

ما ظِلُّ نورٍ ينطوي

في عمق بحر يرتوي

مِن صفو شمس بالضحى

إلّا وظلٌ مُحتجَبْ

إذ قلتَ لكْ:

ما مالَ ثوبي حينما

مال الجمالُ وما نما

ثوب بثوبي إنما

غشَّى ظلام سرَنا

إذ قلتَ لكْ:

أقبِلْ بوجهي حينما

وحَّدتُ سمتي في السما

أخفيتُ نفسي إنما

في كل نفسْ

إذ قلتَ لكْ:

ما سرُّ روحي حين روحي

غافلتني.. حاصرتني

في الترابِ

فصرتُ ميْتًا نابضا

مَنْ كبَّلكْ

تكبيلُك الممتدُّ كان تحرُّرَكْ

أعَلمتَ ما قال الترابُ لحصدِ مائكَ

حين أقفرتِ البلادُ

أنا الحديدُ

رفعتُ أعمدةَ البيوتِ

وقلتُ: هذا الكونُ قريتُنا

فتخطَّفتْكَ نسورُ قابيلَ انخطفتَ

فلا هلكتَ وما هلكْ

هل أطمرَكْ

هل كنتَ تذبلُ

عندما ردَّدتَ أصوات النشيدِ

مع الصغارِ ضُحى النهارْ

لتغيبَ أصواتُ القنابل

تنسى الحقول مدائحَ البارودِ

والموتَ المؤكَّدْ

وارتد صوتُكَ

ذاهلاً مثلَ السرابْ

عصفورةٌ للصبح رفَّتْ

ثم صار نحيبُها في الأفق أبيضَ

ناسجًا كفنَ السماءِ

فكلَّلكْ

مَن أظهركْ؟

فرفعتَ كفَّكَ ضارِعًا

بُحَّ النشيدُ وأنتَ تهتفْ

«جيكانِقا بلَّيابيهْ بلاَّبيهْ

جيكانِقا بليابيهْ بلاَّابيهْ»١(١)

فأعدتَ ترنيمَ الحروفِ

بدورةِ الكونِ المصورِ

وأنتَ تنزفْ

ما أجملكْ

ما أجملكْ

ما أحملكْ

وجعَ المخاضِ وأمطركْ

(١) جيكانقا بلَّيابيهْ بلاَّبيهْ تقولها القبائل النيلية في جنوب السودان، وهذه القبائل تسمى (رث الشُلك). يغنون هذه القصيدة لاستقبال أي وفد أو وداع. هو ميراث لهم منذ خمسمائة عام، ومعناها: نحن جئناك يا ألله في أرضك لتحمينا ونحن واثقون بأنك في أرضك ستكرمنا وتحمينا.

منك إليك

آه سميٌ

آه، فإن محبتي ذابت بصد الكون

لم عد البراح يبل طرف القلب

أو يندى عليٌ

سيف المحبة هزني

فاسّاقط العمر العصيٌ

آه سميٌ

لو كان عمري كله يأتي إليٌ

لجعلته ملكا يكفكفُ

حيرة الزمن القصيٌ

آه سميٌ

وتبعثرت لغة الفصول

ولم يعد نور الصباح أهم من قلب عليٌ

آه سميٌ

هذي فراشات المحبة

شققت صدري

وأدمت ما تبقى من دمي

فتناثرت مهج الكلام

وشقشق الزمن الرديّ

كل السنابل ذهّبت كفي

وضوأني لهيب الفجر

في عيني نبي

آه سميّ

ضاع البخور ببهجة الورد الزكيّ

فصعدت كانت جنتي

شبقا من العطر الجنيّ

والله قد كنت الصفيّ

فتوحد الفردوس بي

وتملكتني رعشة القلب الشجيّ

وشربت نور الدمع من أجفانه

فتفجر النبع المضيء

يحط من كلتا يديّ

آه سميّ

نبتت بأوردتي البراءة

ظللتني صورة الوجه النديّ

آه سميّ

وتحجّرت بي دمعتي

وتجمد النهج الوفيّ

فمتى ستأتي مرة أخرى

تصبُّ بمهجتي الوطن البهيّ؟!

طوفان

هو الحب يا سيدي رغم كل السدود
هو الحب نحيا به تارة أو نموت
ينادم خمر الفؤاد إلى أن يثوب
وتستنشق الآن عطر الوجود
وتحسب قلبي على فلكه
ويأمن بحري في أعماقه
أو يعود
وتنسى بأني أغاريد حب بكل الوجوه
وأني أصارع حلم الوصول إلى شطه
قبل بدء الغروب
فأشرب وقع الرمال المذهّب
فوق الأكف
وأصلب
أصلب في مقلتيك

أزاهير توت

أحج إليك كنورس حب

يسافر دوما إلى الدفء

بين يديك

ويحمل كل النجوم إلى ساعديك

يخاصر فيك الزمان الجميل

ويرسم فيَّ تراتيل عشق النبوءة

أشرب ما سطّرته صحائف موسى

وإنجيل عيسى

وأخرج يونس من بطن حوت

وأكشف ما سبّحته الخلائق

أصحب كل ضياء بقلبي

وأكشف عن سفرك المستحيل

فكن لي القريب

وكن لي البعيد

إذا ما أتتك سحائب قلبي

تحطم هول جبال الطريق

فصر لي بصدري

مزامير حور

وطوفان نوح

وعصفور حبٍّ بطرح الشفاهْ

فأنت القريب البعيد

البعيد القريب

وبدء الكلام إلى منتهاهْ

قُبلة

وكان البحر ورديًا

وكنت هناك غصنا للحقيقة

حيث أصرخْ

وكان الوقت ممحاة

وكنَا نسرق الوردات من فوق الشفاه

ونحن نعبرْ

وكنتَ تقول لى : من أنتَ

كنتُ أقول لى : يا أنتَ أنتْ

ويكفى أن نقيم هنا على وجع الفَرَاش

سحابةً حيرى

لنكون حين لقائنا لغة السماء

نصير عنبر

إذ نصوغ هناك من نبض القلوب

حصير أوجاع الكلام

ليرقد الفقراء فوق كلامنا

ويزورهم قمر السماءْ

وكان البحر رديًا

وفى ولهٍ أداعب ظلك الأزرقْ

لتكون لى...

وأنت الشمس مشرقة تكونُ

طريقنا نحو البداية مشرع

وهناك شارعنا الأثير

فلا بياض سوى بياض قلوبنا صوب النهايةِ

وأقول يكفى الآن:

تقتلنى البدايةْ

وكان البحر رديا

وكنتَ رصاصة زرقاءْ

كموج البحر تقذفنى

خلال الشاطئ الأخرسْ

«وأنا المسافر فى دمى»

جسدى منارة

وأنا أنا يا ابن أم الروح حُمِّلتُ البشارةْ

مهلا ولا تركن إلى جبل ستأتينى الأمارة

كن واقعيا يا فتى لترى انتحارى

كن واقعيا يا فتى

حتى ترى فى عمق هذا البحر لؤلؤة انكسارى

قف عند منعطف الكلامْ

لا تفش أحوالى أنا

سكت السلام عن الحمامْ

كان الحمام قذيفة للبندقيةِ

كنت أصرخ ثم أصرخُ

كنتُ أعبر ظلى الأخضرْ

لأقول للسارى توقفْ

فالحب أكبر من قضايا الوقت

والوطن المدمر

وكان ... كان الحب ورديا

وكان العابرون على دمى سكرْ

لا لا تقل : أجفلتِ هذا الطير فى دمنا المقطرْ

فتجمدى كدم توقف فى شراييني

ولا تتدفقى فى الوجد يا لغتى الوحيدةْ

ودعى القصيدةْ

حتى تُضَوِّعَنى شراييني وأهربْ

والوقت كان وكان سُمِّيا

كصعقة ذلك البرق المصفى

كانت تضئ بخفة كبدى لأعبرْ

لا لا تقل : جرَّحتنى يا حب

هذا الحب قيثار الوجود

وآلة الهارب القديمة

سكت المغنى حيث غنى لم يعبرْ

يا حب كن لى واحدا لأكون أكثرْ

يا حب كن وجها لأفراد كثيرةْ

لأكون أوحدْ

وأكون نقشا موجعا فى قبلة النجم المقدسْ

دع هئتَ لى لأكون جوهرْ

إيزيس أخرى

ما عدتُ أفترشُ المدى ظلًّا
ولا عادتْ شِغافُ القلب عشبًا
ينتمي لعجائز التوتِ المضفّر
بالطفولةِ والندى
حدَّ الفرح
كلُ البلادِ تبعثَرتْ في الصَّمت
سيَّجها البنفسجُ والكفنْ
كلُّ البلاد تراجعتْ للخلف
خلَّفتْ الحرائقَ في دمي
ما عدتُ أحتملُ المسيرَ على الصدى
لمرارةِ الأحلام
للوطن المُمَوَّج بانتحابِ البحر
كسرِ الروح
والعُمرِ الشقيّ
ما عدتُ أحتملُ المسيرَ

إلى هزائم سؤددي

ما عاد يُشبعني الحليبُ

من اليراع الموصدِ

الآنَ أبحثُ عن هواءٍ

يحتوى فيَّ الغدا

ويُوزِّع العمرُ المُضاء

عجينةً لفم الجياع

التائهين على دروب النجم

والسفر الطويل

ما عاد يفجؤني الحنين

إلى تراب الياسمين

كلُ السَّواعد كسرتْ عضدي

تصفَّدت البراءةُ عند موتِ الشمس

فوقَ الغائمين

تكسَّرتْ صورُ الطَّلاوة

شقشقاتُ السوسنةْ

وأنا أزاوجُ بين صمت الريح

والرَّعد المدمَّى بالردى

تتباعدُ الأنهارُ تعلن موتةً

إيزيسُ أخرى

تموز يأكل عشرة الأيام

يشربُ نخبَ شِقوتنا

ويرحلُ في المدى

لدمى فرائض صبوتي

آذانُ توحيدي إذا

ما اللَّحدُ وحَّدني بموتي

هذى أنا

وليشهد التاريخ

أنى قد أضعتُ العمر

أبحثُ عنكَ في الزمن الخطأ

سرير المسافة
«إلى ابنى أسامة»

سَيُنْجِي اتشاحُ السَّواد

كما قال يوما «أمل»

فهل سيرد الصدى

أحبك أمي

فتنشق أرض

وتحيا حياة

وهل سيكون الفراغ ككأس

تعبئ دمعًا

لتشربه الآن أمك

سكرانةً بالذي آلمك

فتطعمك النور خمرا

وكف نجاة

وهل سيحس الثرى

وقع أقدامه فى وريدهْ

دمائي تلاحق

أنفاسه أمنيات

وهل حين كنت على صدر أمكَ

سطَّرت ضعفكَ

رتلتَ قرآن ربكَ

ثم أقمتَ الصلاهْ

يهنئُ دمعكَ

يحملُ دفءَ وريدكَ

يُهديكَ شمسكَ

كلَّ مساء

وهل سوف يذكر روحَك قبرٌ

كما تتذكر روحي تفاصيل روحك

ليل صباح

وكنت تعاني سرير المسافةِ

تلقف وخز الحياةِ

وما بين نضجَ الثِّمار وبين احتضارٍ
نجهز وقع الجنازهْ
وليس لدينا العصافيرُ حتى نقولَ
لنبدأَ يومًا سعيدا

ماذا سيقول الشعر

ماذا سيقولُ الشِّعرْ
إنَّ الوطنَ الغاربَ
مقتولٌ في دلتا الشريانْ
ممتدٌ عبْر براكين هزائمنا
من جثة حيفا حتى لبنان
من غزة حتى الجولان
ماذا سنقولُ لأنفسنا
تتدلى رأسُ هويتنا
في كفِّ الإعصار
ماذا سيفيدُ الشعر
إن رقصت سالومي
أو ماتت أوفيليا
بالأمس رأيتُ الأملَ الأخضر
يقطن في حجرته

يُلقى من شرفته نفسهْ

قبل الموتْ

أرسل برقيهْ

كتب عليها:

(يا كل رجال العالم

آسَفُ

أنى قد أفسدتُ عليكم واقعكم)!

الفهرس

آخر ما كتب الحزن	٧
بلورة الرحلة	١٣
صباح	٢٣
يا بنات الكرخ(١)	٣١
يا بنات الكرخ (٢)	٤١
نشيدان	٤٩
خمر المجذوب	٥٥
قمع الحرير	٦١
منك إليك	٧١
طوفان	٧٥
قُبلة	٧٩
إيزيس أخرى	٨٥
سرير المسافة «إلى ابنىٰ أسامة»	٨٩
ماذا سيقول الشعر	٩٣